وحسبك انه اصل الادلة التي نصبها صلى الله عليه وسلم للشرع ومنها سياسة الشرع وتكاليفه
والآية الكبرى له والنعمة العظمى عليه والذريعة الموصلة الى ما لا تهتدي العقول اليه والعروة
الوثقى في الاعتصام من الفتن كما انبأ عن ذلك صلى الله عليه وسلم بقوله جوابا لمن سأل
عن النجاة من الفتن التي اخبر انها ستكون كقطع الليل المظلم كتاب الله فيه نبأ من قبلكم
وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم وهو حكم ليس بالهزل من تركه تجبرا قصمه الله ومن ابتغى الهدى
بغيره اضله الله وهو حبل الله المتين ونوره المبين والذكر الحكيم والصراط المستقيم
هو الذي لا تزيغ به الاهواء ولا تتشعب به الآراء ولا تشبع منه العلماء ولا تمله الاتقياء من علمه سبق
ومن عمل به اجر ومن حكم به عدل ومن اعتصم به هدي الى صراط مستقيم ونحو هذا قوله
صلى الله عليه وسلم في آخر خطبة خطبها في مرض موته ايها الناس اني تارك فيكم الثقلين
لن تعمى ابصاركم ولن تضل قلوبكم ولن تزل اقدامكم ولن تقصر ايديكم كتاب الله هو سبب بينكم
وبينه طرفه بيده وطرفه بايديكم فاعملوا بمحكمه وآمنوا بمتشابهه واحلوا حلاله وحرموا حرامه
الا وعترتي واهل بيتي فلا تبغوا عليهم فتهلكوا وبالجملة فهو الكتاب الكامل البالغ اقصى
الدرجات واعلى الغايات فكل احد ينتفع به مقدار طاقته وفهمه ومن ثم وصفه تعالى
بانه لا ريب فيه ولا عوج فكان كاملا في ذاته وبكونه هدى للمتقين وقيما فكان مكملا لغيره
اذ القيم القائم بمصالح الغير كالقيم على الاطفال فالارواح البشرية كالاطفال والقرآن كالقائم
بمصالحهم وبما تقرر اندفع تفسيره بمستقيما لانه علم من نفي العوج عنه واندفع قول الواحدي جميع
اهل اللغة والتفسير على ان قيما متقدم على ولم يجعل له عوجا ووجه اندفاعه ما تقرر من ان
الاول يدل على الكمال الذاتي والثاني على تكميل الغير والاول متقدم طبعا فكذا وضعا
فترتيب الآية هو الصواب ثم ان الكتاب والقرآن لغة الضم والجمع نقل الى المجموع المتلو المفسر
بانه كلام الله غير مخلوق مكتوب في مصاحفنا باشكال الكتابة وصور الحروف الدالة عليه
محفوظ في قلوبنا بالفاظ مخيلة مقروء بالسنتنا بحروفه الملفوظة المسموعة باذاننا لكنه
غير حال في المصاحف والقلوب والالسنة والآذان بل هو قديم قائم بذاته تعالى يلفظ ويسمع
باللفظ الدال عليه ويحفظ بالنظم المخيل ويكتب بنقوش وصور واشكال موضوعة للحروف الدالة
عليه يطلق تارة على الكل وهو المراد هنا جريا على قاعدة المتكلمين من انه المعنى القديم
القائم بذاته تعالى وتارة على الكلي وهو اللائق بغرض الاصوليين من حيث انه عندهم هو اللفظ
المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم للاعجاز باقصر سورة منه المنقول بالتواتر المتعبد بتلاوته وآتاه الحكمة
اي النبوة وما يتفرع عنها من الفضائل النفسانية وهي محصورة في العلم بان تصير النفس مكتسبة
بالتصور الحقيقي والتصديق اليقيني بحسب الامكان البشري والعمل بان تقوم باصلاحه والقيام
بمصالح الدنيا والآخرة ووجه اختصاص الحكمة بهذين انهما من احكام الامر وتقويته

وتبعيده

١٤

وتبعيده عن اسباب الرخاوة والضعف وتلك الاعتقادات الصحيحة الصائبة والاعمال المطابقة
لتلك المصالح الواجبة الرعاية لا تقبل نسخا ولا انتقاضا فلذلك اختصا باسم الحكمة ومن ثم كانت
احسن الاقوال تفسيرها في قوله تعالى ومن يؤت الحكمة فقد اوتي خيرا كثيرا بالعلم والعمل لانها لا تخرج
عنهما اذ الكمال منحصر في معرفة الحق لذاته والخير لاجل العمل به فالمرجع بالاول الى العلم والادراك المطابق
وبالثاني الى فعل العدل والصواب وهو التخلق باخلاق الله تعالى ومن فسرها بالفهم والعلم
او فعل الصواب او مواعظ القرآن او القرآن بما فيه او النبوة فقد قصرها على بعض انواعها لما قام
عنده وفصل الخطاب اي الخطاب الفاصل بين الحق والباطل اذ العالم اما غير مدرك بالكلية وهو
الجماد والنبات او مدرك لكنه لا يقدر على تعريف غيره ما ادركه غالبا وهو الحيوان غير الانسان
او مدرك يقدر على ذلك بالنطق والخطاب وهو الانسان لكنه في ذلك انواع اذ منه من يتعذر
عليه ايراد كلام منتظم لاضطراب كلامه وسوء فهمه ومنه من يقدر على انتظام قليلا او غالبا
ومنه من يقدر على ضبط سائر المعاني والتعبير عنها الى اقصى الغايات وهذه القدرة هي المرادة
بفصل الخطاب فهو القدرة على كل ما يخطر بالبال ويحضر في الخيال بتفصيل كل فرد فرد منه
والتعبير عنه بما يناسبه من امور الدنيا والدين وغاية ذلك التي لم يصل اليها مخلوق مختصة
بنبينا صلى الله عليه وسلم ولذا قيل ان كلامه معجز كالقرآن ولم يقل في غيره ذلك لاحد من الانبياء
اذ كتب غيره غير معجزة فكذا كلامهم بخلاف كتابه فلهذا كلامه كذلك على ان هذا وان كان
ضعيفا لكنه من حيث الكل اما الاكثر سيما جوامع الكلم التي اوتيها صلى الله عليه وسلم
فلا شك في اعجازها وقصر فصل الخطاب على اما بعد او الفصل بين الخصمين فهو وان قرب في داود
نظر السياق ونظم الآية لكنه بعيد عن ملاحظة مدرك الكمالات اللائقة بنبينا صلى الله عليه وسلم
بل وبسائر الانبياء عليهم افضل الصلاة والسلام ثم لما كانت سعادة الدارين منوطة بمعرفة
الاحكام الشرعية والعمل بها وكان اخذها انما هو من جهة النبي صلى الله عليه وسلم ووصولها
الينا انما هو من جهة آله واصحابه رضوان الله عليهم اجمعين صارت الصلاة عليه اصالة وعليهم
تبعا من روادف حمده تعالى فلا جرم اردفها لها امتثالا لقوله تعالى ورفعنا لك ذكرك اي لا اذكر
الا وتذكر معي كما في صحيح ابن حبان وخروجا من خلاف من اوجب الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم
كما ذكر انه خلاف قوي خلافا لمن نازع فيه بان قائله محجوج باجماع من قبله كما يأتي في اركان
الصلاة كيف والآية دالة له وكذا خبر من ذكرت عنده فلم يصل علي فدخل النار فابعده الله
وخبر رغم انف من ذكرت عنده فلم يصل علي ولذلك ذهب لاحد القولين الحليمي من الشافعية والطحاوي
من الحنفية واللخمي من المالكية وابن بطة من الحنابلة وترك العاطف لما بين الجملتين
من الانقطاع باختلافهما ثناء ودعاء فقال صلى الله عليه وسلم جملة اخبارية لفظا انشائية
معنى اتى بها هنا بصيغة الماضي رجاء تحقق حصول المسؤول اي الصلاة عليه المأمور بها

Copyright © King Saud University

Created with PDFsharp 1.2.1269-g (www.pdfsharp.com)